ازمة انتاجنا الثقافي
سلبية .. وقوقعية .. وتزوير فكري

بقلم الدكتور نقولا زيادة

ان المتتبع للانتاج الفكري في العالم العربي في السنوات الاخيرة ، ليهوله مايعانيه هذا الانتاج من أزمة. وهي ازمة تقضّ مضاجع المفكرين الأحرار ، لأنها اذا استمرت على ما هي عليه، فلا شك انها ستؤدي بالفكر ونتاجه الى الموت خنقاً. ولأبادر الى القول بان هذه الأزمة القائمة هي نتيجة حتمية للعوامل السياسية والاجتماعية والدينية التي تعين سنن الحياة الفكرية في ديار العرب وتتحكم فيها .

ولعلّ أول ما يلفت النظر في هذه القضية هو موقف الكثيرين من الفكر الغربي وما فيه من فلسفة وأدب ورأي . فقد عهدنا الكتاب العرب في القرن الماضي ، يقبلون على مناهل تلك الحضارة يعبون منها شبعهم ، وينقلون منها الى قرائهم ما ينفع منهم الغلة. وكان القراء يقبلون على هذا قارئين ، متحدثين ، متناقشين . فلما دهمنا الغرب باقتصاده وسياسته ، ورأينا من آثارهما ما ساءنا، عزفنا عن الغرب وما عنده .وهنا بدأ الخطأ يتسرب الى تفكير الكثير من كتابنا ، واستغل المغرضون هذا الأمر ، فرفعوا رؤوسهم ، ودعونا الى الابتعاد عن الغرب في أفكاره وآرائه وأدبه وفلسفته ، وان تفضلوا فسمحوا لنا بقبول صناعاته واختراعاته . فكان من نتيجة ذلك ان اخذت « السلبية » برقاب الكتاب والمفكرين ، فلا يكاد كتاب واحد يدعو الى « التغرّب » الفكري يظهر بيننا ، حتى تخرج المطابع غير كتاب يسخّف فكرته ، ومن خلف الكتّاب هيئات تودّ لو أنها تستطيع ان تنكل بالكاتب الأول ومن أيده .

ولعلّ ابرز ما يمكن ان يقدمه هؤلاء القوم دفاعاً عن « السلبية » هو ان يتهم الفكر الغربي والحضارة الملتصقة به ، بالمادية والاغراق فيها ، بل وخلوها من القيم الروحية وعقمها في كثير من الأحيان .

ويترتب على الاخذ بالسلبية نحو الغرب وحضارته وتفكيره، ان نُدعى الى الاكتفاء بما عندنا . وقد كان الذي عندنا صالحاً في وقت ما ، لكنه مرت عليه قرون طويلة وهو جامد آسن حتى ليصح القول فيه انه تحجر ؛ بينما مرت القرون نفسها على الغرب وهو يسير قدماً - ينمو وينضج ويجرب ويختبر - فأضاف الى ما عرفه العالم قبلاً اشياء واشياء، وكشف النقاب عن حقائق وحقائق ، واهتدى الى قيم وقيم . وبعد هذا كله يأتي البعض منا ويقول جاداً كل الجد ، ان لم يكن مغرقاً في الجد ، بان الذي عندنا يكفينا .

اذا كانت الظاهرة الاولى يصح ان تسمى « السلبية »، فانني اسمي هذه الظاهرة التالية لها ، والمترتبة عليها ، « القوقعية » . ان هؤلاء الكتاب ومن يؤيدهم من هيئات وافراد ، قراء وناشرين ، انما يقولون لنا بوجوب اعتزال هذا العالم ، والدخول الى قوقعتنا ، والاقامة فيها شاتين دوماً ، مجترين ابداً ، دون ان تتجدد دماء الفكر فينا . انهم يريدون لنا ان نعيش في جو قاتم خانق عفن . ولعلّ هذا النهج كان يصح لو ان بلادنا كانت في منأى عن التيارات العالمية الكبرى ، بحيث لا يوقظنا صوت العالم . اما ونحن في وسط المعمعة ، فلن يكون باستطاعتنا ذلك. والدعوة الى « القوقعية » ، مثل الدعوة الى السلبية ، ستؤدي حتما الى القضاء علينا قضاء مبرماً .

ولعلّ من المتنطعين من يشير الى كتب وكتيبات تنشر هنا وهناك ، تحيي من النعرات ما كاد ان يموت ، وتبعث من الضلالات ما كان من حقه ان يظل ابداً في الظلام ، وتخلق اساطير لا تلبث ان تعلقها النفوس الضعيفة وتؤمن بها ، ثم تأخذ بالتبشير بها كأنها حقائق كشف عنها البحث الدقيق ، وجلاها الاختبار . لعلّ من المتنطعين من يشير الى هذا ويسميه نضجاً فكرياً ، وإنتاجاً حرياً بان يوضع في الجهة المقابلة ، ويعتبره إيجابية قمينة بالاهتمام . اما انا فأزعم ان هذا الذي ينقل الينا من دعايات وضلالات يشتريها البعض منا بالهدى ، انما هو ظاهرة ثالثة من ظواهر هذه الازمة التي نعانيها ، وهي التي أجيز لنفسي ان اسميها « التزوير الفكري » .

وهكذا بين سلبية تحرّم علينا قبول الخير من الغرب ، وقوقعية تحملنا على ان نكتفي بما عندنا ، وتزوير فكري يزين لنا الشر خيراً ، والفراغ امتلاء ، والضلال هدى ، تزداد ازمة الانتاج الفكري استحكاماً ، وتعمق الجراح في النفوس ،ويتسع الخرق ، وتكثر الثغرات التي ينفذ منها الضعف الى كياننا .

وقد كانت هذه الامور كافية للقضاء علينا لولا ان في هذا العالم العربي نفراً من الكتاب والمفكرين، يأبون ان يخضعوا إلا

فتور

غمـــامْ
غمامٌ جَهامْ
تلبَّسَ وجه الحجرْ
وحَرٌّ شديد الأوام
لهاثُ الضجر
تصاعد حقداً يغشّي الغمامْ

*

غيومٌ تَسدُّ السماءْ
وخلف الغيوم عروس الفضاء
تَبَرَّجُ في خدرها
وفوق الحضيض
خمولٌ بغيض
يدمدم في الارض لحن العفـاء
ويرسو عـلى صدرها !

*

فتورْ
فأهل الخدور
وأهل الوكور
كسالى ... موات كأهل القبور !
لِزُوجَةُ هذا الهواءْ
تثير الجفاء
متى يستفيق العبير ؟ ...

*

متى تعصف العاصفـهْ
فتجلو الغيومْ
وتنطلق الكاسفهْ
ويسلس هَبُّ النسيمْ ؟ ..

*

وهذا الفتورْ
وما بيننا من جفاءْ
متى يستطير ؟
متى يا حبيبي يسُحُّ الغمامْ
فينضو السقام
وينصل عهد الصفاء ؟

سليم حيدر

للحق ، ويرفضون ان يكونوا حجاراً صماء ، ويرون ان الخير والحق والجمال اولى ان يفتش عنها ، ويعنى بشأنها ، ويغترف من مناهلها ، أنى كانت هـــذه المناهل . وهؤلاء النفر يلقون من العنت كثيره ، ويتعرضون للأذى في غـير مرحلة من مراحل حيـاتهم ، ولكنهم لا يستكينون ولا يطأطئون الرؤوس ؛ واذا قضي عليهم سلموا الراية الى من يحملهـا من المؤمنين بالرسالة .

هؤلاء النفر هم عدّتنا في محاربة عداوة الفكر وخصومته ، وهم حريون بان نؤازرهم ونساعدهم . ومـن حسن الحظ ان « القوى الكامنة » في العالم العربي آخذة في الاتجاه نحو « قوى فعّالة » ، فالواجب على المفكرين الخلّص ، والكتّاب المؤمنين بوجوب السير قدماً ، ان يهيئوا للجيل الطالع ادبا قويا عنيفـاً حاداً ، يستطيع ان يكسب قارئـه نشاطاً فكرياً ، وغذاء نفسياً ، وسلاحاً روحياً ، يمكنه من تقطيع السلاسل ، وفك الاغلال ، ومقاومة تلك الدعاوات الجامدة الضارة . وبذلك يتمكن الانتاج الفكري في العالم العربي من الخروج من ازمته ناهضاً عنه غبار القرون ، متجدداً ، لاحقاً بركب الحضارة .

نقولا زياده